جهود الخلوة السودانية في ترسيخ القيم الإسلامية مملكة سنار (نموذجاً)

الدكتور/ محمد عبد الله موسى إبراهيم *

الإطار العام للبحث

مقدمة:

تمثل مملكة سنار مرحلة مهمة في التاريخ الإسلامي إذ جاءت في وقت كانت الحاجة فيه ماسة لبعث الأمل في نفوس المسلمين بصورة عامة حيث واكب قيامها فترة الحروب الصليبية التي شنها الغرب على العالم الإسلامي ولا تخفى هذه الحاجة بالنسبة للداخل السوداني على سبيل الخصوص، ومما لا شك فيه أن الجهود الكبيرة والمتعاضمة لمملكة سنار والمتمثلة في التوجه الإسلامي أسهمت بصورة كبيرة في تعزيز الثقافة العربية والإسلامية في المجتمع السوداني.

وفي هذا البحث أمل أن أوفق في إبراز الجهود الدعوية والعلمية للخلوة السودانية انطلاقاً من بيان وإبراز تأثيرها في ترسيخ القيم الإسلامية في المجتمع السناري.

أولاً: أهمية البحث : تكمن أهمية البحث في تناوله لفترة زمنية مهمة من تاريخ السودان، بالإضافة إلى أن الخلوة برسالتها التي عرفت بها صارت جزءاً من مؤسسات التشكيل الثقافي بالمجتمع ولذا كان من المهم الوقوف على تجربتها وملاحظة تأثيرها في ترسيخ القيم الإسلامية.

*أستاذ مساعد بكلية الدعوة الإسلامية جامعة أم درمان الإسلامية

السودان mohamad.ama1991@gmail.com

ثانياً: أهداف البحث : تهدف الدراسة لتحقيق الآتي:-

- ١- الوقوف على الجهود الدعوية لمملكة سنار
- ٢- التعريف بالخلوة وبيان مكانتها في المملكة السنارية باعتبارها مركزاً للتعليم
- ٣- إبراز تأثيرها الخلوة في ترسيخ القيم الإسلامية.

ثالثاً: مشكلة البحث:

إن مشكلة البحث تنبثق من أهمية الموضوع المراد معالجته ويمكن طرح المشكلة انطلاقاً من الأسئلة الآتية:-

- ١- ما الجهود الدعوية لمملكة سنار ؟
- ٢- ما مكانة الخلوة في مملكة سنار؟
- ٣- ما التأثير الذي أحدثته الخلوة في مجتمع سنار؟

رابعاً: حدود البحث الزمانية والمكانية:

تقتصر الدراسة على الخلوة السودانية في مملكة سنار (٩١٠-١٢٣٧هـ ١٠٥٤-١٨٢١م)

خامساً : مصطلحات العنوان:

- إن بعض المصطلحات الواردة في العنوان تقتضي التوضيح والبيان كما يلي:-
- أ- الخلوة: المقصود بالخلوة في هذه الدراسة تلك المدارس التي كانت مقراً لتعليم وتدريس القرآن الكريم وبعض العلوم الشرعية في عهد سلطنة سنار.

ب- السودانية : كلمة السودانية هي نسبة إلى السودان^(١)، ولم يظهر إلا في فترة الحكم التركي المصري للسودان أي بعد استيلاء محمد علي باشا على السودان في العام (١٢٣٧هـ - ١٨٢١م)^(٢)، أما في هذه الدراسة فالمقصود به مملكة سنار الإسلامية.

سادساً: منهج البحث:

يعتمد الباحث المنهج الوصفي التحليلي والاستقرائي والتاريخي ليصل إلى الإجابة على تلك الأسئلة.

سابعاً: هيكلية البحث:

المبحث الأول: ملامح من تاريخ الخلوات في السودان قبل قيام مملكة سنار

المبحث الثاني: مكانة الخلوة في مملكة سنار

المبحث الثالث: تأثير الخلوة في ترسيخ القيم الإسلامية بمملكة سنار

المبحث الرابع: منهجية الخلوة في ترسيخ القيم الإسلامية

مستخلص البحث

(١) كلمة السودان في العصور القديمة إبان مملكة سنار الإسلامية يقصد بها بلاد غربي إفريقيا الممتدة من تشاد شرقاً إلى حوض السنغال على المحيط الأطلسي غرباً، أما السودان وادي النيل فإنه يطلق عليه آنذاك اسم أو مصطلح بلاد النوبة (انظر إسحاق بن الحسين المنجم ، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان ، عالم الكتب ، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ ، ص ١٠٤ أو زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر - بيروت، ص ٢٤)

(٢) عبد القادر عثمان محمد ، العلاقات السودانية المغربية رؤية من خلال المذهب المالكي، الندوة العلمية الدولية للإمام الباجي ، السودان - الخرطوم - شوال ١٤٣٥هـ - الموافق أغسطس ٢٠١٤م. ص ٤٦٤ .

تناولت في هذا البحث جهود الخلوة السودانية في ترسيخ القيم الإسلامية – مملكة سنار نموذجاً- عرّفت فيه بمملكة سنار وأشرت إلى جهودها في خدمة الإسلام ثم أشرت إلى ملامح من تاريخ الخلوة واهتمام المجتمع المسلم بها نظراً لما توفره من بيئة صالحة للتربية والتزكية من خلال التعلق بالقرآن الكريم حفظاً ودراسة.

كما أن هذا الوعي بأهمية الخلوة لم يكن غائباً عن قادة مملكة سنار فعملوا على دعم هذه الخلوى من خلال الترحيب بالعلماء واحترام شيوخ القرآن الكريم الأمر الذي انعكس أثره على المجتمع السناري وظهرت نتائجه في إثراء المعرفة الدينية سواء بالتوسع في إنشاء مدارس التعليم أو التوسع في المادة الدراسية مما زاد من التفاعل الإيجابي مع هذه الخلوات انطلاقاً من تلك القيم الإسلامية.

وقد توصل الباحث من خلال هذه الدراسة إلى عدد من النتائج من أبرزها:-

١. أسهمت الخلوة في إثراء الثقافة الدينية وترسيخ القيم الإسلامية في المجتمع السناري بصورة ملحوظة.
٢. أحييت الخلوة في النفوس حب العلم والترغيب في الرحلة لطلبه وتسارعت تبعاً لذلك وتيرة الحركة العلمية
٣. صارت الخلوى مراكز إشعاع ديني وعلمي يتوافد عليها طلاب العلم من كل أنحاء السودان

المبحث الأول: ملامح من تاريخ الخلوات في السودان قبل قيام مملكة سنار

تمثل الخلوات بيئة روحية ومحضناً تربوياً أصيلاً في قيمه ومنطلقاً لتزكية وجدانية قوامها التواضع والزهد والاجتهاد والمثابرة على الحفظ واكتساب العلم مع مشقة ليست مطلوبة في ذاتها ولكن من باب الأخذ بالعزيمة والتعلق بها بغية الوصول إلى مخرجات نافعة تتمثل في جيل صالح انطلاقاً من هذه البيئة الطيبة.^(١)

والخلة القرآنية بهذا المفهوم تعد مظهراً من مظاهر الحضارة الإسلامية فقد برزت إلى الوجود بعد انتشار الدين الإسلامي إذ أن فكرة الخلوة في أصلها مرتبطة بالتعليم والعبادة ومن الطبيعي أن تكون عملية هذا الانتشار في مختلف البقاع مصحوبة ببناء المساجد وإعمارها لأهمية ذلك في إثراء الثقافة العلمية وتعزيز الإصلاح الاجتماعي ، وإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن الخلوة القرآنية نتجت عن هذا الارتباط الوثيق بين المعرفة الدينية والسلوك العملي باعتبار أن نظام الخلوة يعد امتداداً طبيعياً للمسجد ووظيفته. ونظراً للحاجة المتعلقة بتعليم الصغار فقد أوجد المجتمع المسلم أماكن لتعليم الصبيان القراءة والكتابة ومبادئ الدين الإسلامي واهتم بها اهتماماً ملحوظاً لكونها تمثل مرحلة بالغة الأهمية في مسيرة التربية وتحصيل العلم إلى جانب حفظ الهوية الثقافية للأمة، وقد تأتي الإشارة إليها في التراث الإسلامي بأكثر من اسم تبعاً لما اصطلح عليه أهل كل بيئة فقد شاع اسم الكتاتيب أو الكتاب والخلوة والمحاضرة والمدرسة القرآنية وكلها مفردات تتشابه في المصطلح المقصود^(٢) وفي السودان تطلق كلمة (المسيد) على مكان التعلم التقليدي إذا اجتمعت فيه أمور ثلاثة هي المصلى والتدريس والسكن، ولا يسمى المكان مسيداً إلا إذا كانت الخلوة هي محور نشاطه^(٣).

وتأسيساً على هذا فإن نشأة الخلوة القرآنية في السودان كانت مرتبطة بتاريخ ظهور الدعوة الإسلامية فيه حيث يقوم مفهوم الخلوة في الذهنية السودانية على معاني التربية والتعليم إلى جانب التزكية والخدمة^(٤) وكلها من المعاني التي يحرص المسلمون على بسطها في المجتمع انطلاقاً من بناء المساجد والاهتمام بها اقتداء

(١) انظر وزارة الإرشاد والأوقاف - جمهورية السودان الأوراق العلمية للملتقى الدعوى الرابع للوزراء المختصين بالدعوة يناير ٢٠١١م، ص ٥.

(٢) أحمد علي الإمام، الخلوة والعودة الحلو، شركة مطابع السودان للعملة، ص ١٤

(٣) الطيب محمد الطيب ، المسيد، دار جامعة الخرطوم ، ١٩٩١م ص ٣٧.

(٤) أحمد علي الإمام، الخلوة والعودة الحلو، مصدر سابق ص ٦٩

بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد كان أول ما قام به بالمدينة بناء المسجد، وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين وتنقي القلب من أدران الأرض، وأدناس الحياة الدنيا.^(٥)

وبالنظر لواقع الدعوة الإسلامية في المجتمع السوداني في بداية عهده بها يتبين أن الحراك الدعوي كان مقتصرًا على فئة التجار والمهاجرين العرب ثم تعزز هذا الحراك بصورة أكبر من خلال تدفق القبائل التي كانت تبحث عن المرعى^(١). مما يدل على أن أولئك المهاجرين كانت تغلب عليهم البداوة وهو ما يشير إلى أن أمر الدعوة والتعليم ظل ضعيفاً نوعاً ما، وبطبيعة الحال لا يُشك في أن من بين هؤلاء المسلمين الوافدين حفظة قرآن وعلماء لكن لم يتبين أثرهم أو يتضح أمرهم لأن كل ما دون عن علماء الدين في السودان قد جاء متأخراً واعتماداً على الذاكرة^(٢).

والذي تشير المصادر إليه أن أحد الدعاة يسمى غلام الله بن عائد اليمني وفد إلى السودان وكان من أمره أن وجد البلاد ينتشر فيها الجهل والضلال بسبب افتقارها للعلم والعلماء فعمد إلى تعليم أبنائه وابناء المسلمين تلاوة القرآن الكريم انطلاقاً من إنشائه خلوة كبرى بمنطقة دنقلا وكان هذا في أخريات مملكة المقررة النوبية النصرانية في حوالي سنة ٨٧٠هـ.^(٣)

وبعض الروايات الشفهية المتواترة تشير إلى أن تدريس القرآن الكريم سابق لهذا التاريخ حيث تفيد الروايات أن الحاج عيسى بن قنديل هو من أسس الخلوة وبدأ تدريس القرآن الكريم في عهد المملكة النصرانية في وقت سابق لغلام بن عائد، وارتبط اسم الحاج عيسى بن قنديل بالتاريخ الديني في السودان حيث رحل إلى

(٥) محمد الغزالي، فقه السيرة، دار القلم، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ.

(١) محمد نور ضي الله، كتاب الطبقات تحقيق يوسف فضل، مطبعة الحياة الجديدة، السودان ط الخامسة ٢٠١٢م ص ٢

(٢) محمد إبراهيم أبو سليم، بحوث في تاريخ السودان، دار الجيل، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٢، ص ٢٣.

(٣) الطيب محمد الطيب، المسيد، دار جامعة الخرطوم، ١٩٩١م ص ٧٧ وقيصير موسى الزين، فترة انتشار الإسلام والسلطنات، مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية، جامعة أم درمان الأهلية ص ٦٠

الحجاز وتلقى العلم هناك ثم رجع إلى بلده (الدامر) وابتدأ بنشر الثقافة الإسلامية، وفي رواية أخرى أن العبابسة بمنطقة الرباطاب بدأوا التدريس على أيام النوبة في الفترة المشار إليها أو بعدها بقليل وكذلك الحال في كردفان ودار فور، ورواية أخرى تفيد بأن حمد أبو شميلة المحسي كان سابقاً لهؤلاء إذ أنشأ في حوالي سنة ٨٠٠هـ خلوته بقرية سقادي بمنطقة المحمية^(٤). ولعل الروايات التي تؤكد أسبقية الشيخ غلام بن عائد بتدريس القرآن الكريم بدفلاً العجوز تشير إلى الدراسة المنظمة إذ إن الروايات تكاد تجمع على أن هذه البداية المنظمة كانت في أخريات أيام حكم النوبة النصراني^(٥). ولا يتعارض هذا الرأي مع الروايات الأخرى التي تشير إلى جهود سابقة في هذا المجال. وهذه نماذج أخرى لبعض الخلاوى كانت معروفة قبل قيام مملكة سنار وهي:^(٥)

١- خلوة الغربية بديار الشايقية: وقد أسسها الشيخ علي حاج بلال البديري الدهمشي سنة ٨٨٨هـ

٢- خلوة الفلايت البكرية : مؤسسها الشيخ عبد الباسط بن الحاج محمد بن الحاج القرشي البكري الذي قدم إلى أواسلي سنة ٦٥٨هـ وبني خلوته وأوقد نار القرآن الكريم.

٣- خلوة الشريف حمد أبو دنانة : مؤسسها الشريف حمد أبو دنانة بن الشريف محمد بن الشريف أحمد توفي في سنة ٩٦٠هـ .

يضاف إلى هذا أن أولاد عون الله وهم سبعة قد قاموا بنشر العلم وتحفيظ القرآن واستمروا في ذلك حتى قيام سلطنة الفونج الإسلامية، وقد شغل أحدهم وهو المسمى الضرير منصب القضاء الإسلامي زمن الدولة المسيحية ، وكان جدهم يقوم بمهمة نشر المعرفة الإسلامية ولا زالت قبور أولئك العلماء ظاهرة في منطقة (أبو حليلة)

(٤) الطيب محمد الطيب ، المسيد ، دار جامعة الخرطوم ، ١٩٩١م ص ٧٧

(٥) المرجع نفسه ٧٧

(١) فاطمة أحمد علي ، منطقة مروي المظهر والجوهر ، الصفحات ١٧٤ و ١٨١ و ١٨٢

شمال الخرطوم.^(٢) وفي ذات السياق نجد أن مدينة (أرجي) التي أسسها الشيخ حجازي بن معين قبل سنار بثلاثين عاماً كانت حاضرة علم وثقافة وفيها أناس صالحون ومدارس علم وقرآن^(٣). وفي جهة الحلفايا كان هناك الشيخ البندرأوي قبل قيام مملكة سنار حيث يقوم بتحفيظ القرآن وتدرّس العلوم الشرعية والعربية وقد أخذ عنه علماء كثيرون^(٤)

والذي يستفاد من هذا أن تعلم القرآن الكريم و دراسة العلوم الشرعية كانت معروفة إلا أنها ازدهرت في مطلع القرن العاشر الهجري على عهد السلطنة الإسلامية المعروفة بالسلطنة الزرقاء وقد كان حكامها يهتمون بالعلم وأهله انطلاقاً من اعطائهم الرواتب للعلماء ومنحهم الأراضي للشيوخ والاحتفاء بهم الأمر الذي جعل لهؤلاء مكانة اجتماعية مرموقة في المجتمع.^(٥)

المطلب الثاني: مكانة الخلوة القرآنية في العهد السناري

تشير المصادر إلى أن أواسط القرن الخامس عشر الميلادي وجدت بعض المظاهر الدعوية بنواحي النيل الأزرق ولا يستبعد أن يكون أحفاد الداعية غلام الله بن عائد قد انتقل بعضهم من دنقلا إلى جهات النيل الأزرق حيث أنشأوا المساجد للعبادة والتدريس^(١).

وهذا هو المظنون من حال هذه الأسرة التي وجدت حظاً من العلم فمن الجائز أن يكونوا قد توارثوا هم الدعوة الإسلامية مع الحث على ضرورة القيام بها بحكم الاستعداد العلمي الذي كان يميزهم إلى جانب أن النفس الإنسانية غالباً ما تنزع إلى

(٢) مجلة دراسات أفريقية، مصدر سابق ص ١٣٣

(٣) أحمد بن الحاج أبو علي، مخطوطة كتاب الشونة، تحقيق الشاطر بصيلي، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص ٣١

(٤) المرجع نفسه ص ١٣٣

(٥) الطيب محمد الطيب ، المسيد ، دار جامعة الخرطوم ، ١٩٩١م ص ٧٨

(١) مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ٢١١.

التفاخر بأجداد الأسلاف وأعمالهم النافعة الأمر الذي يعد دافعاً قوياً بالنسبة للأحفاد للمحافظة على هذا الإرث العظيم من خلال التوسع في نشره والعمل على رعايته والافتخار به وتدل الأحداث اللاحقة بشأن الخلوة أن القيام بحقها ورعايتها وخدمة أهلها من الشرف الذي يتوارث عبر الأجيال.

وفي مطلع القرن العاشر الهجري وقيام مملكة سنار تعزز هذا النشاط الدعوي وتتابع الاهتمام به بصورة كبيرة تبعاً للفلسفة الحكيمة المتعلقة بشؤون الحكم والادارة لقادة السلطنة، وصار النشاط الدعوي من ضمن اهتمامات السلطة بعد فترة طويلة كانت حركة الدعوة تقتصر على الجهود الفردية المحدودة. ومن ضمن تلك السياسات أن الأساليب والوسائل التي اتبعتها قادة السلطنة في نشر الإسلام كانت سلمية^(٢) تجلى ذلك في احترام العلماء وتبجيلهم والترحيب بوفادتهم.

ومن الأمثلة الدالة على الصحة العلمية في أوائل العهد السناري ما كان من أمر الهجرة إلى مصر حيث أصبحت مقصداً لطلاب العلم، واشتهر من هؤلاء محمود العركي الذي عاصر سلطنة سنار في بداية أمرها، وقد تلقى العلم على شيوخ مصر ثم عاد وأسس بعض المدارس، وهو أول من أمر الناس بالعدة وكانت المرأة قبله يطلقها زوجها ثم تزوج في يومها.^(٣) وهذا يكشف مدى ضعف الواقع الدعوي الذي كان سائداً مما جعل قادة الفونج يرسلون في طلب محمود العركي من مصر ولما قدم وفد عليه آلاف الطلاب وانتشرت العلوم على يديه.^(٤)

ويبدو أن التحصيل العلمي الذي استفاده محمود العركي أشعره بأهمية الخلوة في الإصلاح ومدى التأثير الذي يمكن أن تحدثه فسعي لإنشاء هذه المدارس لرفع الوعي الثقافي والديني لقناعاته بأن إصلاح المجتمع يكون بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة

(٢) المرجع نفسه ص ٢١١.

(٣) محمد النور ضيف الله، كتاب الطبقات، تحقيق يوسف فضل مصدر سابق ص ٣٤٤

(٤) عبد الكريم بن محمود الخطيب، تاريخ جبهة الطبعة الثالثة : ١٤١٨هـ، ص ٣٧

الحسنة والخلق الفاضل ، اقتداء بالمصلحين كما قال تعالى: (وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يُأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا)^(١) . كما أن الخطوة في حد ذاتها تكشف مدى الاهتمام بأهمية التعليم ومعرفة أثره في التغيير ولا شك بأن مثل هذه الرؤية قد توفر لها السند والدعم من قادة السلطنة الذين أثر عنهم دعمهم الكبير للنشاط العلمي والدعوي.

وعلى ضوء هذا الاهتمام اخذت الثقافة الإسلامية في الازدهار في مملكة سنار خاصة في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري "السادس عشر الميلادي" بفضل الله عزو جل ثم بفضل العلماء الذين ظهروا في هذه الفترة وكانوا من وراء هذه الصحوه العلمية التي أحدثت هذه الرغبة في طلب العلم والتوجه نحوه، وقد عدد صاحب الطبقات^(٢) جملة منهم حيث أشار إلى (قدوم الشيخ إبراهيم البولاد من مصر إلى ديار الشايقية ودرس فيها العلم (خليل) و(الرسالة). وانتشر علم الفقه في الجزيرة ثم بعد ذلك قدم الشيخ تاج الدين البهاري من بغداد وأدخل طريقة الصوفية في دار الفنج ثم قدم التلمساني المغربي على الشيخ محمد ولد عيسى سوار الذهب وسلكه طريق القوم وعلمه علم الكلام وعلوم القرآن من تجويد وروايات ونحوها، وانتشر علم التوحيد والتجويد في الجزيرة لأنه أخذ عليه القرآن عبد الله الأغيش... ثم ظهرت ولاية الشيخ ادريس بن الارباب ، وبعده ببسير ظهرت ولاية الشيخ حسن ولد حسونة .. ثم قدم الشيخ محمد بن قرم بدار بربر وأدخل فيها مذهب الشافعي وانتشر مذهبه في الجزيرة ثم قدمت المشايخة وحطت مدينة الحلفاية ، ثم قدم حمد ولد زروق في الصبابي ثم قدم الشيخ محمد المصري دار بربر ودرس فيها علم التوحيد والنحو

(١) سورة مريم رقم الآيات ٥٤ و٥٥

(٢) هو كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان لمحمد النور بن ضيف الله من أوائل وأهم الكتب العربية السودانية التي تؤرخ لعصر سلطنة سنار ، وهو يمثل الأساس لما يحويه من كنوز من المعرفة لا غنى عنها لأي دارس لتلك الفترة (انظر يوسف فضل في مقدمة تحقيقه لكتاب الطبقات والتعريف به)

والرسالة وانتشر علمه في الجزيرة. ومن بعد هؤلاء قدم الشيخ صغيرون والشيخ عبد الرحمن بن حمدتو من دار الشايقية وقدم الشيخ عبد الرازق أبو قرون من دار الصعيد وبعدهم ببسير قدمت رابعة بنت عبد الرحمن بن جابر وأولادها^(٣) وكانوا من الشيوخ العلماء وجميع هؤلاء كانوا ممن جمع بين العلم والتربية الروحية.

وبفضل هذه الصحة العلمية تطور المنهج الدراسي ليتناسب مع ظروف المرحلة فإذا كان المنهج الدراسي يقتصر على تحفيظ القرآن الكريم في وقت سابق فإن الوقت قد حان للجمع بين تحفيظ القرآن الكريم وتدريس المعارف الإسلامية الأخرى، وكان هذا التوسع النسبي يجمع بين حفظ القرآن ودراسة (الرسالة) و(مختصر خليل) و(مقدمة السنوسي) في التوحيد، والانخراط في طريق القوم فهذا غاية ما يصبو إليه كثير من المتعلمين^(١). وتبعاً لذلك (انتشرت خلاوي القرآن في السودان انتشاراً واسعاً كانت تلاقي رغبة الجمهور في تعليم الأبناء ورغبتهم في البركة ولتطلعهم للخدمات الدينية ومما عاون على انتشارها أن أغلب الذين كانوا ينخرطون في سلك التدريس بادئين بخلاوي جديدة بعيدة عن الخلاوي القائمة)^(٢).

وقد أفادت الحركة العلمية والدعوية من هذا التحول وغدت الخلوة بمثابة مركز الإشعاع الروحي والثقافي والاجتماعي من خلال جمعها لوظيفة الشيخ والفقهاء الصوفي المتمثلة في تدريس مبادئ القراءة وتعليم القرآن والفقهاء وتنشئة المريدين والصلاة فيها إلى جانب التأمل والانقطاع إلى الله تعالى^(٣).

وبناءً على هذا يمكن القول بأن الحركة العلمية في مملكة سنار أخذت في التطور من خلال محاور عدة تجسدت في هجرة الطلاب وتنقلهم بين العلماء داخل حدود السلطنة ثم كان العامل الخارجي المتمثل في الهجرة نحو مصر، وفي ذات الوقت كان

(٣) محمد النور ضيف الله، كتاب الطبقات تحقيق يوسف فضل، مصدر سابق ص ٤٣

(١) المصدر نفسه ص ٥.

(٢) محمد إبراهيم أبو سليم، بحوث في تاريخ السودان، مصدر سابق ص ٢٤

(٣) كتاب الطبقات تحقيق يوسف فضل، مصدر سابق ص ١٢.

يقابل هذه الهجرة وفود من العلماء إلى داخل السودان، وإذا علمنا أن تعلم القرآن وحفظه يمثل القاعدة التي يقوم عليها البناء المعرفي للمسلم فهذا يعني أن سهم الخلوة في هذا الحراك الدعوي كان كبيراً، الأمر الذي يستوجب استدعاء جهود الخلوة وعدم إغفال دورها حال الحديث عن الحركة العلمية والثقافية من حيث الكسب والانتشار في المجتمع السناري.

وإذا جاز لنا الاستدلال باللاحق من أمر الخلوة القرآنية على السابق من عهدها لإثبات مكانتها فإننا نشير إلى الرغبة والحرص في الحفاظ على هذا الميراث الذي أثبت فاعليته في التربية حيث أضحت الخلوات تؤسس في المساجد والمنازل على حد سواء، ولعل هذا يعطي إشارة إلى بركة الجهد الذي قام به العلماء في نشر العلم والوعي الديني في العهد السناري. ويتضح من هذا أن بعض الخلوات المعاصرة يشار إلى أن تاريخ تأسيسها (قبل النصف الثاني من القرن العاشر الهجري في عهد السلطان عجيب المانجولك)^(٤).

نماذج لبعض الخلاوى التي اشتهرت في العهد السناري

أسهم العلماء في إثراء النهضة العلمية بصورة كبيرة في العهد السناري انطلاقاً من انشائهم المساجد والخلاوى، وتضاعفت مجهوداتهم على مر السنين عن طريق تلاميذهم واتصلت الحركة العلمية هذه بحركة تكوين المجتمعات، وكانت البيئة العلمية والروحية أمراً جاذباً أدى إلى إنشاء القرى والمدن حول هذه المساجد والخلاوى واحتضانها. وعلى ضوء ذلك أخذت الحياة العلمية في سنار تأخذ الطابع المنظم، وقد أدى الاحتفاء بهذا البعد الروحي للخلوة إلى سرعة انتشارها في كثير من بقاع السودان^(١). ومن أمثلة الخلاوى التي كان لها وجود فاعل في العهد السناري الآتية:-

(٤) علي أحمد محمد بابكر، أعلام وأيام، ج ١، ص ٤٤، ط ١. ٢٠٠٠م، دار جامعة أم درمان الإسلامية للطباعة والنشر، ص ٤٥

(١) دراسات أفريقية مصدر سابق ص ١٣٦

١- **خلاوي الركابية** التي تنسب إلى السيد أحمد بن عائد المشهور بـ غلام الله والذي أتى إلى السودان في أوائل القرن العاشر الهجري واستقر في دنقلا، وأسس أول خلوّة لتدريس القرآن الكريم وسارت ذريته من بعده في هذا الطريق وأسسوا كثيراً من الخلاوي في مختلف بقاع السودان.

٢- **خلاوي البديرية** المنتشرة على امتداد منطقة مروي وخارجها من الخلاوي التي كانت لها شهرة واسعة في مجال تعلم القرآن وكذلك كانت خلوّة الشريف حمد أبو دنانة والذي قام بتأسيسها الشريف حمد أبودنانة حيث قدم إلى السودان عن طريق مصر، واستقر ببلدة تنقسي بالقرب من دنقلا العجوز، أسس الشريف خلوته وأوقد نار القرآن وأتى إليه العديد من طلاب العلم والمعرفة وتخرج على يديه العديد من العلماء وقد توفي سنة ٩٦٠هـ^(٢)

٣- **خلاوي الجوير** ومؤسسها الشيخ محمود الصاردي في سنة ١٠٦٢هـ ويعرف المسيد وخالويه باسم أولاد جابر^(٣).

ومن خلال تتبع شأن الخلاوي يتضح أن تأسيسها في هذه الفترة من العهد السناري أصبح سلوكاً عاماً لدى كثير من الأسر ففي بربري ظهرت أسرة الغبش وفي منطقة الشايقية أولاد جابر وفي دار الجعليين نجد المجاذيب وفي منطقة الرباطاب ظهرت أسرة العبابسة، وبعض الروايات تشير إلى أن رهطاً من العبابسة خرجوا من ديارهم مبشرين حتى استقروا في جنوب كردفان ناحية الجبال الشرقية (تقلي) وسميت المنطقة باسم العبابسية نسبة لهذه الأسرة^(٤).

(٢) فاطمة أحمد علي ، منطقة مروي المظهر والجوهر، مصدر سابق ١٥٧

(٣) الطيب محمد الطيب ، المسيد، مصدر سابق ص ١٥٠

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٦٣

٤- **خلاوي منطقة كردفان:** وفيها تأتي الإشارة إلى جهود الشيخ بدوي أبو صفية وابنه الكناني فإنهما كانا يقودان تلامذتهما ويتتبعان الناس في مواقعهم وربما مكث الشيخ معهم مدة ثم يترك لهم من يعلمهم القرآن لينطلق هو إلى غيرهم^(١).

٥- **خلاوي منطقة الجزيرة:** فقد اشتهرت منطقة الجزيرة الوسط بكثرة الشيوخ والخواوي وازدهرت الحركة العلمية فيها بصورة ملحوظة إبان العهد السناري، وقد حفل كتاب الطبقات بذكر كثير من الأماكن التي كانت منارات علم وهدى نهل منها كثيرون وجفل إليها الراغبون، ومن أشهر هذه الخلاوي مسيد ود عيسى الذي أسسه الشيخ مضوي بن مدني بن عبد الدائم الأنصاري الخزرجي^(٢) ويوضح كاتب الشونة أن جهة الجزيرة والنيل الأزرق كان فيها أبناء غلام الله وكانوا سبعة رجال ويشير كذلك إلى انتشار علم التجويد بالجزيرة، الأمر الذي يدل على الاهتمام بتدريس القرآن ومدى انتشار تعلمه بالمنطقة^(٣).

٦- **خلاوي منطقة الحلفايا:** والحلفايا من الأماكن التي اشتهرت بالعلم والعلماء في العهد السناري كذلك فقد اتخذت منها القبائل العربية خاصة نقطة التقاء واستقرار، وتبعاً لذلك ازدهرت الحياة الثقافية وظهرت جهود الشيخ البنداري فقد كان لخلوته شأن كبير في تعليم القرآن الكريم إذ كان يرد الناس إليها من أماكن متفرقة^(٤). وفي هذه الفترة أيضاً برز جهد الشيخ دفع الله بن محمد الكاهلي، وقد وصفه صاحب الطبقات بالورع والتقوى والسخاء وضيافة الوافدين والانفاق على طلبة العلم مع كونه صاحب

(١) المصدر السابق، ص ٢٣٨

(٢) محمد النور ضيف الله، كتاب الطبقات، تحقيق يوسف فضل مصدر سابق ص ٣٤١

(٣) أحمد بن الحاج أبو علي، مخطوطة كتاب الشونة، مصدر سابق، ص ٥

(٤) عون الشريف قاسم، حلفاية الملوك التاريخ والبشر، دار جامعة أم درمان الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص

خلق حسن، بلغ من حلمه أنه لم يقهر فقيراً من طلبة القرآن ولا فلقه^(٥) كعادة المقرئين بل يأمره باللطف ولين الكلام^(٦)

وهذا الاستطراد من صاحب الطبقات في وصف الشيخ وذكر مآثره وبيان كيفية معاملته لطلابه يدل على وجود حركة علمية فاعلة ونشطة وأن المنطقة كان ينشط فيها تعليم القرآن بصورة واضحة.

نماذج لبعض الكتب التي كان يتم تدريسها بالخلوة

يتضح أن الخلوة بالإضافة إلى اعتنائها بتعليم القرآن الكريم تقوم أيضاً بالاهتمام بتدريس بعض العلوم الشرعية الأخرى ومن أشهر الكتب التي كان يعكف طلاب العلم ويجتهدون في دراستها الكتب التالية:-

١- كتاب مختصر خليل: من أشهر كتب الفقه المالكي عليه مدار الفتوى في

المذهب^(١)، ومؤلفه خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المالكي المعروف بالجندي. من كبار الفقهاء المالكية. شارك في علوم العربية والحديث والفرائض والاصول والجدل. أقام بالقاهرة، وجاور بمكة. توفي في ربيع الاول سنة ٧٦٧هـ.^(٢)

٢- كتاب الرسالة : ومؤلفه هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني ويقال له:

مالك الصغير. وكان أحد من برزوا في العلم والعمل.^(٣) وقد وضع كتابه في الفقه المالكي أيضاً جمع فيه كما يقول:(جملة مختصرة من واجب أمور الديانة مما تنطق به اللسان وتعتقده القلوب وتعمله الجوارح وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من

(٥) الفلقة: اسم لخشبة يشد في طرفها حبل يقيد بها الانسان إذا أرادوا ضربه على قدميه ، وهي كلمة عربية فصحي

(انظر محمد النور ضيف الله، كتاب الطبقات، تحقيق يوسف فضل مصدر سابق ص ٢١١)

(٦) محمد النور ضيف الله، كتاب الطبقات، تحقيق يوسف فضل مصدر سابق ص ٢١٠

(١) انظر خليل بن اسحاق، مختصر خليل، ص ٢

(٢) الزركلي، الاعلام، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر، ٢٠٠٢ ج ٢ ص ٣١٥

(٣) الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج ١٧ ص ١٠

مؤكداه ونوافله ورغائبه وشيء من الآداب منها وجمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الامام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته^(٤).

٣- **كتاب الأخصري في الفقه المالكي:** لصاحبه عبد الرحمن بن محمد الأخصري من أهل الجزائر توفي في العام ٩٨٣هـ^(٥)

٤- **كتاب متن العشماوية** من تأليف الامام عبد الباري العشماوي الرفاعي والكتاب عبارة عن مقدمة مختصرة في مذهب الامام مالك^(٦)

٥- **كتاب متن العقيدة السنوسية ويسمى أم البراهين** ، ومؤلفه الشيخ محمد بن يوسف السنوسي من علماء القرن التاسع الهجري^(٧).

٦- **كتاب متن الجزرية** وهو نظم في أحكام تجويد القرآن الكريم ، ومؤلف المنظومة هو محمد بن محمد بن علي بن يوسف، أبو الخير، شمس الدين، الشهير بابن الجزري: شيخ الإقراء في زمانه. ولد ونشأ في دمشق، وابتنى فيها مدرسة سماها (دار القرآن) ورحل إلى مصر مراراً وهو من علماء القرن التاسع الهجري^(٨).

٧- **كتاب متن الشاطبية:** منظومة في القراءات السبع وتعرف أيضا بحرر الأمانى ووجه التهاني وناظمها هو الشيخ أبو القاسم القاسم بن فيره ابن خلف بن أحمد الرعيني، الأندلسي، عاش في القرن السادس الهجري^(٩).

٨- **كتاب الخرازي:** ورد ذكر اسم هذا الكتاب في الطبقات بهذا الاسم في تراجم بعض الشيوخ ، وقد تعرض البروفيسور يوسف فضل له بالقول: لم أهتد لترجمة

(٤) ابن أبي زيد القيرواني، الرسالة ص ٢

(٥) الأعلام، الزركلي، مصدر سابق ج ٣ ص ٣٣١

(٦) محمد النور ضيف الله ، كتاب الطبقات، تحقيق يوسف فضل ، مصدر سابق ص ٢٨٢

(٧) موقع الموسوعة الحرة على الشبكة العنكبوتية.

(٨) الأعلام، الزركلي، دمشق، مصدر سابق ج ٧ ص ٤٥

(٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ج ١٧ ص ١٠

المؤلف ، لكنه أشار إلى أن الشيخ حمدتو بن الحاج سعيد المناوي كان استاذاً في القراءات السبع يحفظ الشاطبيتين الكبرى والصغرى ويدرس الخراز^(٤).

وبناءً على هذا فإنني أرجح أن يكون كتاب الخرازي هذا يقصد به منظومة (مورد الظمان في رسم أحرف القرآن) للشيخ محمد بن محمد بن إبراهيم، أبو عبد الله الأموي الشريشي، الشهير بالخراز، عالم بالقراءات من أهل فاس أصله من شريش توفي سنة ٧١٨ هـ.^(٥)

والذي يؤكد هذا الترجيح أن مادة الكتاب تبحث في ضبط كلمات المصحف وكيفية رسمها وفق الرسم العثماني، وإذا ألقينا نظرة تاريخية على عملية رسم القرآن الكريم في المصاحف السودانية نجد أن كتاب مورد الظمان هذا يعد عمدة نساخ المصاحف في السودان فقد كانوا يعتمدون عليه في نسخ المصاحف^(٦).

كما أن ورود اسم الكتاب في الطبقات متبوعاً بذكر كتاب الشاطبية حال الترجمة لبعض الشيوخ دليل على تكامل المنهج المتعلق بالمادة عند الشيخ، ولا يخفى أن ازدهار الخلاوى والعناية بتدريس القرآن الكريم في هذه الفترة ترجح وجود مثل هذا الكتاب المتعلق بعلم القراءات ورسم المصحف.

هذه نماذج لبعض الكتب التي تشير المصادر أنها كانت تدرس إبان العهد السناري ولم يكن الأمر مقتصرًا عليها، حيث ورد ذكر تدريس بعض العلوم الأخرى كالمنطق وعلم الكلام وعلم أصول الفقه وعلم العربية وغيرها.

المبحث الثالث: تأثير الخلوة في ترسيخ القيم الإسلامية بمملكة سنار

(٤) محمد النور ضيف الله ، كتاب الطبقات، تحقيق يوسف فضل ، مصدر سابق ص ٢٨٢

(٥) الأعلام، الزركلي الدمشقي، مصدر سابق ج ٧ ص ٣٣

(٦) مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، العدد الأول. الموقع الإلكتروني للجامعة .

لقد استطاعت الخلوة أن تصبح مكاناً تنصهر فيه المجموعات المتباينة في ثقافتها ولغاتها وعاداتها وتقاليدها وقيمها، فهي مكان للعلم من المهد إلى اللحد، أو التعليم مدي الحياة لا تعرف قيلاً للالتحاق بها ، فتقبل الصغير والكبير ، وتقبل في كل الأوقات، وتخرج في كل الأوقات لا تعرف حداً لعدد الملتحقين بها ، ولا تعرف عدداً من السنوات للبقاء فيها^(١).

وبهذا لم تكن الخلوة القرآنية في المملكة السنارية معزولة عن المجتمع لأن طبيعة المهمة التي تقوم بها جعلت المجتمع يلتف حولها، وقد أوجد هذا نوعاً من التفاعل والتواصل أدى إلى ترسيخ القيم الإسلامية والاحتفاء بها، وسوف أشير إلى بعض القيم التي أرستها الخلوة في المجتمع السناري.

أولاً: قيمة طلب العلم واحترام العلماء

إن عالم الدين الرباني يمثل دوراً عظيماً في التأثير على المجتمع فمن خلال مظهره وحسن سمته قد يغني تأثيره عن الكتب ولو أقام الناس عشر سنين يتناظرون في معاني الفضائل ووسائلها، ووضعوا في ذلك مائة كتاب، ثم رأوا رجلاً فاضلاً بأصدق معاني الفضيلة، وخالطوه وصحبوه لكان الرجل وحده أكبر فائدة من تلك المناظرة وأجدي على الناس منها، وأدل على الفضيلة من مائة كتاب ومن ألف كتاب^(٢). وفي هذا السياق نجد أن النهضة التعليمية التي أحدثتها الخلوة جعلت من التعليم ضرورة اجتماعية ورغبة ذاتية حيث تحول أفراد المجتمع باتجاه التعليم بصورة كبيرة ، وقد ذاعت شهرة بعض المناطق في السلطنة وصارت مراكز إشعاع ديني وعلمي يتوافد عليها طلاب العلم من كل أنحاء السودان حيث تتوفر فيها دراسة أكثر العلوم الإسلامية^(٣)، ونتيجة

(١) يوسف الخليفة أبوبكر، بحث (دور الخلوة في التعليم الأساسي) المقدم في مؤتمر سياسات التربية والتعليم ، قاعة الشارقة - الخرطوم، ١٩٩٠.

(٢) مصطفى الرافي، الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م ج ٣ ص ٣٨

(٣) إخلاص محمد عثمان ، الشايقية القبيلة والتاريخ، دار عزة للنشر ، السودان ، الخرطوم، ٢٠٠٥ ص ١١٧

لذلك ارتفع المستوى الاجتماعي لمن حقق نجاحاً في هذا المجال، الأمر الذي عزز من قيمة طلب العلم واحترام أهله.

لقد أصبحت شخصية العالم والشيخ لها وجاهة كبيرة داخل السلطنة نظراً للجهود المبذولة في مجال العلم والتعلم فمن الملاحظ أن إعلاء قيمة احترام العلماء وتقدير جهودهم كان على مستوى قادة السلطنة، فقد جمع الملك بادي بن رباط أحد ملوك سنار كبار أعيان السلطنة وأشدهم أن الشيخ إدريس الأرباب^(٢) في مقام والده ، وقد عرض السلطان عليه أن يقسم له نصف ما يجبي إلى السلطنة من موارد فامتنع الشيخ تورعاً، ثم طلب إلى السلطان أن يكون شافعاً في كل شيء فأعطاه السلطان الشفاعة فدخل سنار واحداً وسبعين مرة في مصالح المسلمين^(٣).

وفي هذا ترسيخ لقيمة نشأ عليها المجتمع المسلم يقول أبو حامد الغزالي: (الملك والدين توأمان فالدين أصل والسلطان حارس وما لا أصل له فمهذوم وما لا حارس له فضائع ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان وطريق الضبط في فصل الحكومات بالفقه)^(٤).

وهذا الأمر الذي تتكامل فيه الأدوار وتتحد فيه المهام في تسيير شؤون الدولة وإصلاح المجتمع استفاده المسلمون من سلفهم يقول ابن عباس: (وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً)^(٥) والقراء: يراد بهم قراء القرآن، ويراد بهم أهل التعبد والزهد^(٦).

(٢) هو الشيخ الإمام إدريس بن الأرباب كان صاحب فضل وعلم وكرم عاصر سلطنة الفونج توفي في العام ١٦٥٠م (انظر كتاب الطبقات بتحقيق يوسف فضل حسن ص ٥٠ ، مصدر سابق)

(٣) محمد النور ضيف الله ، كتاب الطبقات، تحقيق يوسف فضل ، مصدر سابق ص ٦٠

(٤) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة - بيروت، ج ١ ص ١٧

(٥) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین) رقم الحديث ٤٦٤٢

(٦) ابن الجوزي ، كشف المشكل من حديث الصحيحين ، دار الوطن - الرياض ، ج ١ ص ١١٠

وإحياء لهذا المبدأ يتضح بأن توجهات العلماء في السلطنة كانت مسموعة وشفاعتهم مقبولة وكانوا من ضمن القوى الفاعلة التي مارست نفوذاً اجتماعياً كبيراً في المجتمع بسبب تقدير الناس لهم، وليس من المبالغة بأن الطرق الصوفية كانت تمثل ركناً مهماً من الأركان التي قام عليها النظام السناري^(٧).

والإشارة إلى دور الطرق الصوفية في السلطنة هي إشارة لدور العلماء وجهودهم في التعليم والتزكية الروحية باعتبار أن العلماء في فترة سلطنة سنار كانوا مرتبطين مباشرة بالطرق الصوفية ولم يبدأ فصل حقيقي بين العلماء والتنظيمات الدينية الجماهيرية إلا تحت الحكم التركي المصري^(٨). وهذا التوافق بين السلطان والعلماء كان سبباً في إعانة السلطان وتوجيهه لما فيه خير البلاد والعباد.

وصورة العالم نفسها كانت مبنية بمقدار نفعه للغير أيضاً فقد أورد صاحب الطبقات في ترجمة الشيخ يعقوب بن مجلي أن رجلين اختلفا أحدهما يقول بأفضلية الشيخ يعقوب على الشيخ محمد بن سوار الذهب، والآخر يقول بعكس ذلك وانتهى الحال بهما بأن يحتكما إلى الشيخ دفع الله^(٩) فأثنا على الشيخين خيراً ثم قال: "إن الشيخ محمد أتى بقراءة القرآن في الجزيرة وعلم التوحيد وأرشد الناس فهو أكثر ثواباً من الشيخ يعقوب ومن كان أكثر ثواباً فهو في الشرع أفضل من غيره وقد قال تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)"^(١٠).

وهذه الإجابة الموفقة تدل على نضج علمي وتحمل كثيراً من الضلال التربوية وتعد صورة مشرقة في مقابل أخبار الشطحات وخوارق العادات التي استحوذت على مساحة واسعة في الروايات المتعلقة بالشيوخ والعلماء في هذه الفترة.

(٧) قيصر موسى الزين، فترة انتشار الإسلام والسلطنات، مصدر سابق، ص ٦٠.

(٨) جون فول، تاريخ الطريقة الختمية في السودان، ترجمة محمد سعيد القدال ص ٢٤٤.

(٩) لم يشر صاحب الطبقات إلى من هو الشيخ دفع الله هذا، لكن تفاصيل القصة في الكتاب تدل على أنها وقعت بالحلفاية، وقد كان الشيخ دفع الله بن محمد الكاهلي قد داوم على التدريس في مسجد الحلفاية مدة عشر سنين، انتفع بعلمه خلق كثير، فإن يكن ثمة دفع الله فلعله هو هو. (انظر كتاب الطبقات ص ٢١٠)

(١٠) سورة الزمر رقم الآية ٩

إن الخلوة في مسيرتها أحييت في المجتمع كثيراً من المعاني الإيمانية والقيم الأخلاقية، ومن تلك القيم الاحتساب في بذل المعروف والإحسان إلى الغير بكافة أشكاله وأنواعه تقرباً إلى الله تعالى وابتغاء لمرضاته، وهنا يكمن الفرق بين التربية المادية التي لا تؤمن إلا بالمصالح الوقتية والنتائج النفعية وبين التربية الإسلامية التي ترى أن إساءة المعروف والإحسان للغير بدعوتهم لا بد أن يتجرّد من كونه عملاً مشروطاً بنتائجه وعواقبه، وأن يجرد ابتداءً وانتهاءً لله وحده^(٢) وفي هذا يقول ابن حزم رحمه الله: (وابذل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك ، ولكل من احتاج إليك وأمكنك نفعه ، ولا تُشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عز وجل)^(٣).

ومن صور الاحتساب التي حفلت بها الخلوة في العهد السناري الأنواع التالية :-

١- الاحتساب ببذل الوقت

وهذه الصورة تتجسد في الشيوخ حيث لم يكن جلوسهم للتدريس نظير مقابل مادي يحصلون عليه بل كانوا ينفقون على طلابهم مدة تعليمهم وربما امتد هذا العطاء إلى تزويج هؤلاء الطلاب إذا استمر مكوثهم في الخلوة بداعي الاستزادة من التزكية والتربية الروحية التي توفرها بيئة الخلوة^(٤). وكان بذل الوقت بحسب المادة المقدمة حيث يقوم بعض الشيوخ بتدريس أكثر من مادة في اليوم الواحد.

(٢) مجلة البيان ، العدد ١٣٨ لعام ١٩٩٩م ص ٣٠

(٣) ابن الحزم ، الأخلاق والسير ، تحقيق عادل أبو المعاطي ، دار المشرق العربي، القاهرة. الطبعة الأولى ، عام ١٩٨٨م ص ٩٦.

(٤) محمد النور ضيف الله، كتاب الطبقات ، تحقيق يوسف فضل، مصدر سابق ص ٢٩٢

بـ الاحتساب بتقديم الخدمة للشيخ والطلاب

إن مساعدة الطلاب وتقديم الخدمة لهم تعد من محاسن الأخلاق التي كان يتمتع بها المجتمع السناري فقد كان من الشائع أن الأهالي يقومون بشؤون هؤلاء الطلاب مدة تعلمهم، وذلك من خلال توزيع الطلاب على الأسر فتختص الأسرة بواحد أو اثنين، ولا شك أن في ذلك إثراء لقيم الخير وبسطاً لمكارم الأخلاق، يقول أنس - رضي الله عنه : **كَانَ أَخَوَانِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْآخَرُ يَحْتَرِفُ، فَشَكَا الْمُحْتَرِفُ أَخَاهُ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَقَالَ: لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ.**^(١) «يحترف» : يكتسب ويتسبب، وعلى ضوء هذا المعنى النبوي قام المجتمع السناري بكفالة طلاب العلم. ولم يكن الطالب يجد حرجاً كبيراً في تدبر شؤونهم بعد وصوله إلى شيخ الخلوة بفضل إحياء المجتمع لهذه القيمة (٢)

جـ. الاحتساب بتقديم المال

من أنواع المال الذي كان وجوده به أفراد المجتمع السناري في دعم الخلوة أنهم كانوا يبذلون الرقيق والفضة والذرة والعسل والأنعام والدواب كذلك، وتدل الوقائع أن الخلوة في بعض الحالات كانت تقوم بسد بعض الثغرات التي قد لا ينتبه المجتمع لها أحياناً كحاجة الأيتام والأرامل والضعفاء وكان هؤلاء عندما يتسامعون أن مالاً قدم إلى الخلوة يأتون للنوال ولسان حال الشيخ أبشروا وأملوا فتقضى حوائجهم وتحقق

(١) سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله ، رقم الحديث ٢٣٤٥ وقال الحاكم : " صحيح من شرط مسلم ورواته عن آخرهم أثبات ثقات " ووافقه الذهبي.

(٢) إخلاص محمد عثمان ، الشايقية القليلة والتاريخ، مصدر سابق ص ١١٨.

رغباتهم. وهذه خدمة أخرى تقدمها الخلوة بجانب المهمة التعليمية والتربوية التي تقوم بها.^(٣)

ثالثاً: تكوين قيادات فاعلة في المجتمع

إن المعرفة العلمية والخبرات الاجتماعية التي يجدها الطالب في الخلوة كانت كفيلة بتأهيله إلى الحد الذي يستطيع فيه أن يكون مؤثراً في المجتمع بعد تخرجه انطلاقاً من المهام التي يتولاها بعد ذلك ، فقد يشتغل الطالب بعد تخرجه بالتجارة والزراعة ليتكسب منها^(٤). وربما رأى الشيخ في الطالب الذي تلقى قسطاً وافراً من العلوم الشرعية صفات القيادة فينصحه بالجلوس للتدريس والإرشاد في مكان ما فيذهب إليه، وهذا يعني أن معلم القرآن الكريم كان قائداً مهماً لمجتمعه فهو على دراية بالفقه عموماً ومعارف متنوعة إلى جانب تعليمه الصبيان القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم وبعض الحساب ومسائل أخرى حسب ما يتفق ، ويقوم بخدمات لمجتمعه الصغير في مجال الإرشاد الديني العام ، والفتيا، وإقامة المناسبات الدينية، والتعاويد والطب.^(١)

رابعاً: قيمة حفظ الوقت

إن بيئة الخلوة كانت تمثل نموذجاً حياً في ضبط الوقت والمحافظة عليه وذلك بالجدية في طلب العلم وترك الفضول والملهيات مع التوازن في العلاقات الاجتماعية، والناظر في التراث الإسلامي بصورة عامة يجد أن قيمة حفظ الوقت هذه تعد من أهم السمات التي تميز بها العلماء الربانيون . وهذا نموذج ليوم دراسي للشيخ عبد الرحمن بن إسيّد^(٢) أورده صاحب الطبقات قال: (أول ما يفرغ من صلاة الصبح يدخل

(٣) محمد النور ضيف الله، كتاب الطبقات ، تحقيق يوسف فضل، مصدر سابق ص ٥٧

(٤) محمد إبراهيم أبو سليم، بحوث في تاريخ السودان، مصدر سابق ص ٣٠

(١) محمد إبراهيم أبو سليم، بحوث في تاريخ السودان، مصدر سابق ص ٢٣.

(٢) عبد الرحمن بن إسيّد ، كان ذا علم ودين وانقباض عن أهل الدنيا جمع بين العلم والعمل توفي رحمه الله تعالى سنة

١١٢٧هـ (انظر محمد النور ضيف الله، كتاب الطبقات ص ٢٨١)

يقرا الماضي من (خليل)، بعد ما يقوم منه يدخل على ناس القرآن يصحح ألواح الدرس، ثم يقرأ في (خليل)، ثم يجوا ناس (الخرافي) و(الجبـزري) و(الشاطبية)، ثم يجوا ناس العقائد و (الأخضري) و (العشماوي)، ثم جاءه المؤذن لصلاة الظهر، فإذا فرغ منه دخل ظهرية (خليل) ثم صلى العصر، ثم جاء أهل التجويد، ثم جاء ناس العقائد و(العشماوي) و (الأخضري)، ثم جاء المؤذن لصلاة المغرب، ثم جاء لقراءة المغربية على (خليل)... ثم يعرض ناس القرآن الدارسين اثنين اثنين يقوم لصلاة العشاء فيصبر قليلا حتى يتعشى الفقرا^(٣)، ثم يمسك سوطه ويجلس لناس القرآن حتى يقرأ السبع^(٤)، فإذا فرغ منه قام ودخل خلوته. ويجي واحد من الطلبة شال حزمة حطب ويوقد النار وهو يقرأ.... فإذا فرغ شال سوطه وتور^(٥) الفقرا ناس العلم والقرآن يحوا ويكتبوا ألواحهم، ومحفظته فيها سبحة ألفية يشتغل بها حتى يكتبوا ألواحهم . ثم شرع في صحة الألواح فقط حتى يجيه المؤذن لصلاة الصبح، ثم يدخل لقراءة الماضي من (خليل)، فأيام البطالة يفتي ، ويحكم...^(٦).

وهذا السرد يكشف كيفية سير اليوم الدراسي بالخلوة، وتدل هذه التفاصيل على الاستفادة القصوى من الوقت والحرص على عدم تضييعه، ولا يشكل على هذا النظام في ترتيب الوقت غياب مساحة للراحة فمن الواضح أن أوقات الراحة أثناء اليوم الدراسي تتخلل الوجبات وأوقات الصلوات.

خامسا: الصبر والمصابرة

وبما أن الحركة العلمية في المجتمع السناري لم تكن تنزع نحو الاجتهاد في تحرير المسائل العلمية لبعد السودان عن مراكز تأليف الكتب وارتفاع كلفتها على علماء

(٣) أي الطلاب

(٤) السبع: ورد من القرآن الكريم يقرأه الطالب ليلا لتثبيت حفظه

(٥) تور : أيقظ

(٦) محمد النور ضيف الله ، كتاب الطبقات تحقيق يوسف فضل ص ٢٨١.

السودان^(١). فإن الطالب غالباً ما يأتي على دراسة الكتاب في الفن المعين أكثر من مرة، وهذا يعني أن الأمر كان يحتاج إلى صبر ومجاهدة على التلقي فبعض الشيوخ كانت مجالسهم في التدريس والقراءة تزيد على عشر ختمات للكتاب الواحد ، وهذا يعني أن الطالب ربما مكث في الخلوة لأكثر من سبع سنوات وليس في هذا دعوة للبطالة ، ولكنها حاجة دعت إليها ظروف طلب العلم، وحرصاً على التجويد والإتقان^(٢) يقول أحد تلاميذ الشيخ محمد بن الفقيه عبد الرحمن بن الأغفش : (كنا نقرأ عنده الميراث في خلوات القوز نلحق سبعين طالباً مكثنا معه نحو سبع سنين ما رأينا جمجمة رأسه ، بل دائماً متقناً)^(٣).

المبحث الرابع: منهجية الخلوة في ترسيخ القيم الإسلامية

إن المنهجية التي اتبعتها الخلوة في ترسيخ القيم الإسلامية يمكن النظر إليها من خلال محورين أحدهما نظري والآخر عملي.

أولاً: المحور العلمي:

بالرغم من أن المنهج العلمي الذي يتم تنفيذه بالخلوة في كثير من الأحيان يكون متوقفاً على ثقافة الشيخ ومدى استعداده العلمي إلا أن الملاحظ بأن المادة التي يتم تقديمها تمثل في جملتها حصيلة معرفية وخبرات عملية مهمة للطالب، ومن خلال استقراء واقع الخلوة وما يتعلق بأدائها في العهد السناري يمكننا أن نشير الى أن المحور العلمي يركز بصورة رئيسة علي المواد التالية :-

١- القرآن الكريم

٢- العقيدة

(١) محمد ابراهيم أبو سليم، بحوث في تاريخ السودان، مصدر سابق ص ٣٠

(٢) إخلاص محمد عثمان ، الشايقية القبيلة والتاريخ، مصدر سابق ص ١١٨ .

(٣) محمد النور ضيف الله ، كتاب الطبقات، تحقيق يوسف فضل مصدر سابق ص ٣٥٨

٣- الفقه

ومفردات هذا المنهج الدراسي بصورة عامة تهدف إلى إصلاح الإنسان من خلال ثلاثة جوانب هي:-

١- تصحيح المعتقد (العلاقة مع الله جل ثناؤه)

٢- تزكية النفس (علاقة الانسان مع نفسه)

٣- كيفية التعامل مع الآخرين (علاقة الإنسان مع غيره)

ويلاحظ أن القرآن الكريم يأتي في مقدمة المطالبات الدراسية دائماً، فهو أول ما يتربى عليه الطالب باعتباره المصدر الرئيس لتكوين ثقافة مميزة ولبناء شخصية معتدلة. وتلتقي مواد المنهج العلمي مع بعضها لتحقيق هذه الجوانب الثلاث.

وإذا ألقينا نظرة على أشهر كتب الفقه التي يتم تدريسها بكثافة في مملكة سنار فإننا نجد كتاب (مختصر خليل) لخليل بن اسحاق المالكي وكتاب (الرسالة) لابن أبي زيد القيرواني وكتاب (متن الأخضري) لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد الأخضري. وعلى ضوء ذلك نستطيع أن نرى فلسفة هذا المنهج العلمي واضحة وحاضرة من خلال التوجيهات الإيمانية والوصايا الأخلاقية التي قيدت في مقدمة هذه الكتب. وأشير هنا إلى مقتطفات من مقدمة كتابي (الرسالة) و(متن الأخضري) كنماذج توضح هذه الرؤية حيث جاء في مقدمة كل منهما ما يلي:-

نموذج من مقدمة كتاب الأخضري:

يقول عبد الرحمن الأخضري: (أول ما يجب على المكلف: تصحيح إيمانه ثم معرفة ما يصلح به فرض عينه كأحكام الصلاة والطهارة والصيام. ويجب عليه

أن يحافظ على حدود الله ويقف عند أمره ونهيه ويتوب إلى الله سبحانه قبل أن
يسخط عليه^(١)

نموذج من مقدمة كتاب الرسالة :

يقول بن أبي زيد القيرواني: (أما بعد) أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه وحفظ
ما أودعنا من شرائعه فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور
الديانة مما تنطق به الالسنه وتعتقده القلوب وتعمله الجوارح وما يتصل بالواجب
من ذلك من السنن من مؤكدا ونوافلها ورغائبها وشيء من الآداب منها وجمل
من أصول الفقه وفنونه على مذهب الامام مالك بن أنس رحمه الله تعالى
وطريقته مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان
المتفقهين لما رغبت فيه من تعليم ذلك الولدان كما تعلمهم حروف القرآن ليسبق
إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته وتحمد لهم عاقبته
فأجبتك إلى ذلك لما رجوته لنفسى ولك من ثواب من علم دين الله أو دعا إليه^(٢).

ثانياً: المحور العملي:

يقوم منهج الخلوة في محوره التطبيقي بتكوين الطلاب تكويناً سليماً يؤهلهم لحياة
عملية جادة تتسم بالعطاء، ولذلك لم يقتصر منهج الخلوة على التحفيظ والتلقين بل
شمل جوانب أخرى يكتسبها الإنسان من خلال الآتي:-

١- العمل الجماعي: وتتجلى مظاهره في كثير من تفاصيل اليوم سواء في أداء
الصلوات أو تناول الوجبات.

٢- الاشتراك في تنفيذ بعض المهام مما يؤدي إلى تعزيز قيمة التعاون على البر
والتقوى الأمر الذي يؤدي إلى مزيد من التقارب والتفاهم بين الطلاب .
ومن خلال هذه الجزئية أيضاً ربما وقف الطلاب على تفاصيل بعض

(١) أبو زيد الأخضرى، متن الأخضرى ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، ميدان الأزهر، ص ٢

(٢) ابن أبي زيد القيرواني ، متن رسالة القيرواني، دار الفكر، ص ٢

الأحداث الخاصة بعملية التوجيه والإصلاح التي يقوم بها الشيخ وذلك عندما يحرص الشيخ على أن يكون الطلاب جزءاً مكماً لجهوده التي يقوم بها وبالتالي تتعزز ثقتهم في نفوسهم باكتسابهم لخبرات ومهارات أثناء حفظهم.^(١)

٣- التنافس: والحفظ في الخلوة قائم على التنافس وهذا بدوره يوجد نوعاً من الاجتهاد والمثابرة فرؤية الذين احرزوا نجاحاً وتقدماً في التحصيل يدفع بالآخرين للتفوق والحرص على التعلم والصبر عليه. وهذا يؤكد أن الخلوة على الدوام ظلت وفيه في الحفاظ على ثقافة الأمة وثوابتها، انطلاقاً من العمل بهذا المنهج .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فقد اشتملت هذه الدراسة على جهود الخلوة السودانية في ترسيخ القيم الإسلامية مملكة سنار (نموذجاً) أشرت فيه إلى ملامح من تاريخ الخلوة القرآنية ومسيرتها بالإضافة إلى ذكر المعالم المنهجية في ترسيخ القيم الإسلامية من خلال منهج الخلوة ، وقد خلصت الدراسة إلى عدد من النتائج والتوصيات يمكن الإشارة إلى أبرزها:-

أولاً: النتائج:

١- أسهمت الخلوة في إثراء الثقافة الدينية وترسيخ القيم الإسلامية في المجتمع السناري

(١) محمد النور ضيف الله ، كتاب الطبقات ، تحقيق يوسف فضل ، مصدر سابق ص ٩٦

- ٢- خرجت الخلوة أجيالاً من العلماء الذين حملوا راية الإشعاع العلمي والحضاري بالبلاد.
- ٣- حظيت الخلوة برعاية كريمة من قادة مملكة سنار وذلك من خلال التوافق الكبير بين العلماء وقادة السلطنة
- ٤- لم يقتصر دور الخلوة على تحفيظ القرآن الكريم بل شمل تدريس بعض العلوم الإسلامية
- ٥- من المهام التي كانت تقوم بها الخلوة مساعدة الفقراء والضعفاء فقد كانت ملاذاً لسد الحاجة
- ٦- أرست الخلوة كثيراً من القيم الإسلامية بالمجتمع السناري كالتكافل والتعاون على البر والتقوى.
- ٧- أحييت الخلوة في النفوس حب العلم والترغيب في الرحلة لطلابه
- ٨- صارت الخلاوى مراكز إشعاع ديني وعلمي يتوافد عليها طلاب العلم من كل أنحاء السودان
- ٩- رفعت الخلوة من المستوى الاجتماعي لخريجها الذين قاموا بسد كثير من الثغرات وقد أفاد المجتمع منهم بصورة كبيرة.

ثانياً: التوصيات:

- ١- الاهتمام بالخلوة وتمكينها من أداء رسالتها .
- ٢- الاهتمام بخريجي الخلوة لدورهم المتعاظم عبر التاريخ في حمل راية الإشعاع العلمي والحضاري بالبلاد.
- ٣- العمل على تطوير منهج الخلوة ليواكب مستجدات العصر
- ٤- ترغيب الناشئة في الالتحاق بالخلوة من خلال تحسين البيئة والاستعانة بالوسائل التعليمية التي تحببهم إليها .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. ابن أبي زيد القيرواني ، متن رسالة القيرواني، دار الفكر
٢. ابن الجوزي ، كشف المشكل من حديث الصحيحين ،دار الوطن – الرياض
٣. ابن الحزم، الأخلاق والسير ،تحقيق عادل أبو المعاطي، دار المشرق العربي، القاهرة. الطبعة الأولى ،عام ١٩٨٨م
٤. أبو حامد الغزالي ،إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت
٥. أبو زيد الأخطري، متن الأخطري ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، ميدان الأزهر
٦. أبو شفعة مفتاح علي الطرشاني، السلطنة الزرقاء في السودان الشرقي ، رسالة دكتوراه بجامعة أم درمان الإسلامية غير منشورة ١٩٩٨ .
٧. أحمد بن الحاج أبو علي، مخطوطة كتاب الشونة، تحقيق الشاطر بصيلي، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي
٨. أحمد علي الإمام ،الخلوة والعودة الحلوة، شركة مطابع السودان للعملة
٩. إخلاص محمد عثمان ، الشايقية القبلية والتاريخ، دار عزة للنشر ، السودان ، الخرطوم، ٢٠٠٥
١٠. الأعلام ،الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر، ٢٠٠٢م
١١. جون فول، تاريخ الطريقة الختمية في السودان، ترجمة محمد سعيد القدال ص ٢٤٤.
١٢. خير الدين الزركلي ، الأعلام، دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر ٢٠٠٢م
١٣. خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي ، الأعلام، دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر ،مايو ٢٠٠٢م.
١٤. سنن الترمذي، كتاب الزهد ،باب في التوكل على الله ، رقم الحديث ٢٣٤٥
١٥. شمس الدين الذهبي ، سير أعلام النبلاء الناشر : مؤسسة الرسالة

١٦. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري دار الشعب - القاهرة
١٧. الطيب محمد الطيب، المسيد، دار جامعة الخرطوم، ١٩٩١م
١٨. عبد القادر عثمان محمد، العلاقات السودانية المغربية رؤية من خلال المذهب المالكي، الندوة العلمية الدولية للإمام الباجي، السودان - الخرطوم - شوال ١٤٣٥هـ - الموافق أغسطس ٢٠١٤م.
١٩. عبد الكريم بن محمود الخطيب، تاريخ جبهة الطبعة الثالثة: ١٤١٨هـ
٢٠. عبد المجيد عابدين، تاريخ الثقافة العربية في السودان
٢١. علي أحمد محمد بابكر، أعلام وأيام، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، دار جامعة أم درمان الإسلامية للطباعة والنشر.
٢٢. عون الشريف قاسم، حفاية الملوك التاريخ والبشر، دار جامعة أم درمان الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٩٨٨
٢٣. فاطمة أحمد علي، منطقة مروى المظهر والجواهر
٢٤. قيصر موسى الزين، فترة انتشار الإسلام والسلطنات، مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية، جامعة أم درمان الأهلية
٢٥. مجلة البيان، العدد ١٣٨ لعام ١٩٩٩م ص ٣٠
٢٦. مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية.
٢٧. مجلة دراسات أفريقية، مركز البحوث والدراسات الأفريقية
٢٨. محمد إبراهيم أبو سليم، بحوث في تاريخ السودان، دار الجيل، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٢
٢٩. محمد الغزالي، فقه السيرة، دار القلم، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ
٣٠. محمد النور ضيف الله، كتب الطبقات، بتحقيق يوسف فضل حسن، ص ٤، ط الخامسة، ٢٠١٢م الخرطوم، السودان.
٣١. مصطفى الرافي، الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

٣٢. مصطفى محمد سعيد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٠م
٣٣. وزارة الإرشاد والأوقاف - جمهورية السودان الأوراق العلمية للملتقى الدعوى الرابع للوزراء المختصين بالدعوة يناير ٢٠١١م، ص ٥.
٣٤. يوسف الخليفة أبوبكر، بحث (دور الخلوة في التعليم الأساسي) المقدم في مؤتمر سياسات التربية والتعليم ، قاعة الشارقة - الخرطوم، ١٩٩٠.
٣٥. يوسف فضل حسن، تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١م